العقيدة ١

المحاضرة الثانية عشر

تعريف العبادة، وشروطها

٩-تعريف العبادة، وشروطها ، وبيان أنواعها وأن من صرف منها شيئاً لغير الله فقد أشرك :

أ-تعريف العبادة :

-العبد إن أريد به المعبد أي المذلل المسخر دخل فيه جميع المخلوقات ، فالكل مخلوق لله عز وجل مسخر بتسخيره مدبر بتدبيره ، ولكل منها رسم يقف عليه وحد ينتهي إليه (لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار) كل يجري لأجل مسمى لا يتجاوزه مثقال ذرة (إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً / إن كل من في السماوات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً) ، فذلك تقدير العليم وتدبير العدل الحكيم .

-وإن أريد به العابد خص ذلك بالمؤمنين كما في قوله تعالى : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً).

-وأما العبادة فهي اسم جامع لكل ما يحبه الله تعالى ويرضاه من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة ، فالظاهرة كالتلفظ بالشهادتين وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة والصوم والحج والجهاد في سبيل الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإغاثة الملهوف ونصر المظلوم وتعليم الناس الخير والدعوة إلى الله عز وجل والمباحات مع تحسين النية فيها ومتابعة السنة ،

والباطنة كالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره وخشية الله وخوفه ورجائه والتوكل عليه والرغبة إليه والاستعانة به والحب والبغض في الله والموالاة والمعاداة فيه وغير ذلك .

هذا من حيث أفراد العبادة وأنواعها أما من حيث مناطها الذي تدور حوله ولا تصح إلا به فهي كمال الحب ونهايته وكمال الذل له تعالى ونهايته ، ولا تنفع عبادة بواحد من هذين دون الآخر ، ولذا قال من قال من السلف : من عبدالله بالحب وحده فهو زنديق ، ومن عبده بالرجاء وحده فهو مرجيء ، ومن عبده بالخوف وحده فهو حروري [1] ومن عبده بالحب والخوف والرجاء فهو مؤمن موحد .

وبيان ذلك أن دعوى الحب لله بلا تذلل ولا خوف ولا رجاء ولا خشية ولا رهبة ولا خضوع دعوى كاذبة ، ولذا نرى من يدعي ذلك كثيراً ما يقع في معاصي الله عز وجل ويرتكبها ولا يبالي ويحتج بالإرادة الكونية وأنه مطيع لها وهذا شأن المشركين الذين قالوا : (لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا) وإمامهم في ذلك إبليس إذ قال : (رب بما أغويتني)، وإنما المحبة نفس وفاق العبد ربه فيحب ما يحبه ويرضاه ويبغض ما يكرهه ويأباه ، وإنما تتلقى معرفة محاب الله ومعاصيه من طريق الشرع وإنما تحصل بمتابعة الشارع (قل إن كنتم تحبون الله

فاتبعوني يحببكم الله) فمن ادعى محبة الله ولم يكن متبعاً رسوله ﷺ فهو كاذب ، وقال الشافعي رحمه الله : إذا رأيتم الرجل يمشي على الماء أو يطير في الهواء فلا تصدقوه حتى تعلموا متابعته لرسول الله ﷺ .

وكذلك الرجاء وحده إذا استرسل فيه العبد تجرأ على معاصي الله وأمن مكر الله ، وقد قال تعالى : (فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون)

وكذلك الخوف وحده إذا استرسل فيه العبد ساء ظنه بربه وقنط من رحمته ويئس من روحه وقد قال الله تعالى : (إنه لا ييأس من روح الله إلا القوم الكافرون)، وقال : (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون).

فالأمن من مكر الله خسران ، واليأس من روحه كفران ، والقنوط من رحمة الله ضلال وطغيان ، وعبادة الله عز وجل بالحب والخوف والرجاء توحيد وإيمان ، فالعبد المؤمن بين الخوف والرجاء ، كما قال تعالى : (ويرجون رحمته ويخافون عذابه)، وقال تعالى : (أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه) وبين الرغبة والرهبة ، كما قال تعالى في آل زكريا : (إنهم كانوا يسارعون في الخيرات ويدعوننا رغباً ورهباً وكانوا لنا خاشعين)

فتارة يمده الرجاء والرغبة ، فيكاد أن يطير شوقاً إلى الله ، وطوراً يقبضه الخوف والرهبة فيكاد أن يذوب من خشية الله تعالى ، فهو دائب في طلب مرضاة ربه مقبل عليه خائف من عقوباته ملتجئ منه إليه ، عائذ به.

قد يكون الحب والخوف حباً فطرياً وخوفاً فطرياً لا عبادة فيهما ، فالمحبة التي ليست معها خوف ولا تذلل كمحبة المطعم والمشرب والأهل والمال والولد وغير ذلك ليست بعبادة ولكن إذا اقتضى ذلك تقديم مرادات المحبوب ومطالبه على مرادات الله كان في ذلك عبودية لها تنقص في توحيد العبد بقدرها كما قال تعالى : (أرأيت من اتخذ إلهه هواه) ، فهو الذي لا يهوى شيئاً إلا ركبه مهما خالف مراد الله ، وكذا قوله ﷺ في الصحيح : (تعس عبد الدينار تعس عبد الدرهم ...) وهو من استرق المال قلبه وأصبح رضاه وسخطه من أجله ، وكذلك الخوف بدون محبة كالخوف الفطري من الوحوش والحريق والعدو والغرق وغير ذلك فليس بعبادة لكن إذا وصل الأمر إلى حد الخشية بالغيب والنكوص عن الدين بسبب ذلك الخوف فذلك خوف كفري لا فطري . كما قال تعالى عن الذين نكصوا عن الدين وشر حوا بالكفر صدراً : (ذلك بأنهم استحبوا الحياة = =الدنيا على الآخرة وأن الله لا يهدي القوم الكافرين) ، فخوفهم على دنياهم وحبهم لها ليس خوفاً طبيعياً ولا حباً طبيعياً بل كان خوفاً كفرياً وحباً كفرياً . والله تعالى أعلم .

ب-أركان العبادة وشروطها :

للعبادة ثلاثة أركان أو شروط :

الأول : صدق العزيمة . الثاني : الإخلاص . الثالث : متابعة الرسول ﷺ .

فالأول شرط في صدور العبادة ووقوعها ، والآخران شرطان في قبولها .

١-صدق العزيمة : وهو أن يبذل العبد جهده في امتثال ما أمر الله به واجتناب ما نهى الله عنه والاستعداد للقاء الله وترك العجز وترك التكاسل عن طاعة الله وإمساك النفس بلجام التقوى عن محارم الله وطرد الشيطان عنه بالمداومة عن ذكر الله والاستقامة على ذلك كله ما استطاع ، قال تعالى : (من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه)، وقال تعالى : (يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين)، وقال تعالى : (ألم* أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون*ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين)، وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف وفي كُلٍّ خير . احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز وإن أصابك شيء فلا تقل ولو أني فعلت [كان] كذا وكذا ، ولكن قل : قدر الله وما شاء فعل ، فإن لو تفتح عمل الشيطان) . العنكبوت : ١-٣ .

٢-الإخلاص : وحقيقته أن يكون قصد العبد وجه الله عز وجل والدار الآخرة كما قال تعالى : (وسيجنبها الأتقى* الذي يؤتي ماله يتزكى *وما لأحد عنده من نعمة تجزى* إلا ابتغاء وجه ربه الأعلى*ولسوف يرضى)، وقال تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً *ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً)، وقال تعالى : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها وهم لا يبخسون*أولئك الذين ليس لهم في الآخرة إلا النار وحبط ما صنعوا فيها وباطل ما كانوا يعملون)، وقال تعالى : (ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين).

وفي الصحيحين عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه) ، وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (إن الله لا ينظر إلى أجسامكم ولا إلى صوركم ولكن ينظر إلى قلوبكم) ، وعن أبي موسى رضي الله عنه قال : سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجاعة ويقاتل حمية ويقاتل رياء ، أي ذلك في سبيل الله ؟ فقال ﷺ : (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله) متفق عليه .وكذا قوله تعالى : (لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدقة أو معروف أو إصلاح بين الناس ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضات الله فسوف نؤتيه أجراً عظيماً) [النساء : ١١٤]

٣-المتابعة : أي متابعة الرسول ﷺ ، وهو شرط لازم لقبول العبادة من العبد ، فيعبد الله تعالى وفق ما شرع وهو دين الإسلام الذي لا يقبل الله من أحد ديناً سواه ، كما قال تعالى : (ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين).

وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد) ، وفي رواية لمسلم : (من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد) فهذه الأركان الثلاثة شروط في العبادة لا قوام لها إلا بها فالعزيمة الصادقة شرط في صدورها ، والنية الخالصة وموافقة السنة شرطان في قبولها ، فلا تكون عبادة مقبولة إلا باجتماعها ،

فإخلاص النية بدون صدق العزيمة هوس وتطويل أمل وتمنٍ على الله وتسويف في العمل وتفريط فيه ، وصدق العزيمة بدون إخلاص يكون شركاً أكبر أو أصغر بحسب ما نقص من الإخلاص ، وإخلاص النية إن لم يكن العمل وفق السنة كان بدعاً وحدثاً في الدين وشرع ما لم يكن العمل على وفق السنة كان بدعاً وحدثاً في الدين وشرع ما لم يأذن به الله فيكون رداً على صاحبه ووبالاً عليه والعياذ بالله ، فلا يصدر العمل من العبد إلا بصدق العزيمة ولا يقبل منه ذلك إلا بإخلاص النية وإتباع السنة ، ولذا قال الفضيل بن عياض رحمه الله في قوله تعالى : (ليبلوكم أيكم أحسن عملاً) قال : أخلصه وأصوبه ، يعني خالصاً من شوائب الشرك موافقاً للسنة .

جـ - بعض أنواع العبادة :

١-الدعاء : وهو أعظمها ولبها ، قال الله عز وجل : (وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين)، وقال ﷺ : (الدعاء هو العبادة) ثم قرأ : (وقال ربكم ادعوني استجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين) رواه الترمذي وقال : حديث حسن صحيح وله عن ابن عباس رضي الله عنهما مرفوعاً : (إذا سألت فسأل الله)، وله أيضاً عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ : (إنه من لم يسأل الله يغضب عليه).

٢-الخوف : قال تعالى : (فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين)، وقال سبحانه : (ولمن خاف مقام ربه جنتان)، وقال تبارك وتعالى : (والذي يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة أنهم إلى ربهم راجعون)، وقال عز وجل : (ويرجون رحمته ويخافون عذابه)، وقال تعالى : (أمّن هو قانت آناء الليل ساجداً وقائماً يحذر الآخرة ويرجوا رحمة ربه).

وقال النبي ﷺ : (لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً ، وما تلذذتم بالنساء على الفرشات ولخرجتم إلى الصعدات يجأرونإلى الله) رواه الترمذي عن أبي ذر رضي الله عنه وحسنه ورواه عنه أيضاً ابن ماجه وأحمد، وفي البخاري عن أم العلاء الأنصارية رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : (والله لا أدري –وأنا رسول الله ﷺ- ما يفعل بي ولا بكم) ، وفي الترمذي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (ما رأيت مثل النار نام هاربها ، ولا مثل الجنة نام طالبها)، وفيه عنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (من خاف أدلج ، ومن أدلج بلغ المنزل ، ألا إن سلعة الله غالية ، ألا إن سلعة الله الجنة)، وله وابن ماجة عن عائشة رضي الله عنها قالت : سألت رسول الله ﷺ عن هذه الآية : (والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة) هم الذين يشربون الخمر ويسرقون ؟ قال : لا يا ابنة الصديق ، ولكنهم الذين يصومون ويتصدقون وهم يخافون أن لا يقبل منهم)، وفيه من حديث أبي جحيفة رضي الله عنه قال : قالوا : يا رسول الله قد شبت ، قال : (شيبتني هود وأخواتها).

٣-التوكل : وهو اعتماد القلب على الله تعالى وثقته به وأنه كافية .
قال تعالى : (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) فجعله الله تعالى شرطاً في الإيمان ، كما وصف المؤمنين أنهم أهله إذ قال تعالى : (وعلى الله فليتوكل المؤمنون)، وقال موسى عليه السلام لقومه : (إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين) وقال تعالى عن رسله إذ قالوا لقومهم . (وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون *وما

لنا أن لا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون)، وقال تعالى عن نبيه هود عليه السلام : (إني توكلت على الله ربي وربكم ما من دابة إلا هو آخذ بناصيتها ..) وقال تعالى عن نبيه نوح عليه السلام : (يا قوم إن كان كبر عليكم مقامي وتذكيري بآيات الله فعلى الله توكلت فأجمعوا أمركم وشركاءكم ثم لا يكن أمركم عليكم غمة ..) وقال تعالى عن نبيه شعيب عليه السلام : (وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) وقال تعالى لنبينا محمد ﷺ(فتوكل على الله إنك على الحق المبين)

وقال تعالى : (ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله فاعبده وتوكل عليه وما ربك بغافل عما تعملون)، وقال تعالى : (فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلاّ هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم)

وقال تعالى في مدح عباده المؤمنين : (الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل)، وقال تعالى فيهم : (إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً وعلى ربهم يتوكلون).

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في هذه الآية : (حسبنا الله ونعم الوكيل) قالها إبراهيم عليه السلام حين ألقي في النار ، وقالها محمد ﷺ وأصحابه حين (قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) ، وفي الصحيح عنه رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : (يدخل الجنة من أمتي سبعون ألفاً بلا حساب ، هم الذين يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون)

، وروى الترمذي عن عمر رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (لو أنكم توكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماصاً وتروح بطاناً)، وفي حديث القدر : (فتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك).

٤-الرجاء : قال تعالى : (ويرجون رحمته ويخافون عذابه) ، وقال تعالى : (أولئك يرجون رحمة الله) ، وفي الحديث القدسي : (أنا عند ظن عبدي بي) ، وفي دعاء المكروب : (اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي ولا أحد من خلقك طرفة عين) ، وفي صحيح البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : (إن الله تعالى خلق الرحمة يوم خلقها مائة رحمة فأمسك عنده تسعة وتسعين رحمة وأرسل في خلقه كلهم رحمة واحدة ، فلو يعلم الكافر بكل الذي عند الله من الرحمة لم ييأس من الجنة ولو يعلم المؤمن بكل الذي عند الله من العذاب لم يأمن النار).

‘‘‘

بتوفيق للجميع

khaled